# مميزات اللغة العربية

د. فؤاد حسنين

نفهم تحت هذا اللفظ المفردات التي شقت طريقها إلى سائر لغات شبه الجزيرة وغيرها من الأقاليم التي استوطنتها الشعوب العربية منذ فجر التاريخ حتى اليوم مثل الأكادية والكنعانية والأرامية والحبشية وما إليها. كذلك نعني باللغة العربية اللغة التي دون فيها تراث سكان قلب الجزيرة وشمالها في العصر الجاهلي وأنزل فيها القرآن الكريم وسجلت فيها الآثار الدينية والأدبية، منذ نزول الوحي حتى يومنا هذا. واللغة العربية وإن كانت قديمة جداً إلا أن أقدم مصدر وصلنا أطلق عليها لفظ (عربية) قد يكون هو القرآن الكريم.

وتقوم لغة التخاطب العربية ولغة بعض الآثار الأدبية التي وصلتنا دليلا على أن هذه اللغة عبارة عن خليط من عدة لغات ولهجات عربية قديمة تحتضنها في صدر الإسلام مجموعتان شهيرتان شرقية أو تميمية وغربية أو حجازية أو قرشية. وفي الشرقية نلمس آثار اللغات العربية الشرقية البائدة مثل الأكادية، وفي الغربية نلحظ الأثرين الكنعاني والعربي الجنوبي.

وقد عثر بعض المستشرقين على آثار لهجات عربية شمالية اصطلح على تسميتها اللحيانية والثمودية والصفوية والأوجاريتية حسب آخر الآراء.

أما اللهجة اللحيانية فنسبة إلى آل لحيان الذين سكنوا شمال الحجاز قبل الميلاد وكانت عاصمة بلادهم مدينة (ددن) الوارد ذكرها في كتاب العهد القديم أو الذي يطلق عليه تجاوزا اسم التوراة، أما (ددن) فهي المعروفة لنا باسم (العلا)، ويرجع الفضل في العثور على كثير من الكتابات اللحيانية إلى أمثال (هوبر Huber) و (أويتنج Euting) حيث عثر الأخير عام 1889 في (العلا)، شمال بلاد العرب، على كتابات قيمة جدا. وفيما بعد نجد أمثال (جوسن Jaussen) و (سافنياك Savignac) وقد عثر كلاهما في المنطقة الواقعة فيما بين العلا والحجر (مدائن صالح) على كتابات اختلف العلماء في تاريخها، كما عثر أيضاً على كتابات لحيانية ترجع إلى عصر الملوك الدادانيين ويرجع تاريخها فيما يظن إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد.

أما ظهور اللحيانية واللحيانيين في شمال الجزيرة فترجحه الكثرة المطلقة من المعنيين بدراسة اللغات العربية وتاريخ العرب القديم إلى البعث العلمي الجديد الذي ظهر في شمال بلاد العرب في القرن الثاني ق.م. وذلك بفضل الدولة المعينية ومستعمراتها التي كانت منتشرة في شمال الجزيرة العربية، ولا أدل على قوة هذا الأثر المعيني من أن كثيراً من الكتابات التي عثر عليها العلماء مدونة في الخط المعيني الجنوبي ولو

أن لغتها عربية شمالية، ومع مضى الزمن أخذ الخط اللحياني يظهر ويتطور حتى أصبحنا نفرق بين خط لحياني قديم وآخر أقدم منه.

ومن دراسة هذه الكتابات نخرج بنتيجة نقررها دون حرج أو تردد وهي أن اللغة اللحيانية تتفق والعربية الإسلامية في كثير من الخصائص النحوية والصرفية. ففي اللحيانية نجد الإعراب والإفراد والتثنية والجمع، كما تفرق اللغة بين جموع التكسير والتذكير والتأنيث وفي الإشارة تميز بين العقلاء وغير العقلاء كما تستخدم (ذو) لمعنى صاحب وتجريها إجراء العربية القرآنية وكما نستخدم نحن أدوات الإشارة بسيطة ومركبة كذلك الحال هنا في اللحيانية وما يقال عن الإشارة يقال أيضاً عن أدوات الوصل.

وإذا تركنا الإعراب والتذكير والتأنيث والإشارة والوصل وانتقلنا إلى الفعل وجدنا هنا أوزانه وحالات إعرابه المختلفة من رفع ونصب وجزم وإن امتازت اللحيانية في فترة ما بشيوع صيغة (هفعل) إلا أن هذه الصيغة لم تلبث إلا أن اختفت وحلت محلها صيغة (افعل). وفي هذه اللغة العربية القديمة نجد أيضاً البناء للمعلوم والمجهول كما نجد صيغة (فعالى) ولكنها بالياء لا بالكسرة كما هو الحال في العربية القرآنية.

أما الاسم فيعرف وينكر، وأداة التعريف هي (ها) وفي اللحيانية المتأخرة نجد أيضاً (ال) والاسم مذكر ومؤنث وغير المؤنث اللفظي يؤنث الاسم بعلامة التأنيث (ة).

ومعظم الجمل التي وصلتنا اسمية. وقبل أن أختم القول في اللحيانية أحب أن أشير إلى أن هذه اللغة استكملت أبجديتها أعني أننا نجد فيها

سائر الإشارات الدالة على مختلف الأصوات من (ث خ ذ ض ظ غ) كما سهلت الهمزة أحيانا.

وخالفت العربية القرآنية أحيانا في العدد فاللحيانية تقول مثلا (أربعو عبد) أي أربعون عبدا و (عشر أيام).

* * *

أما اللغة الثمودية فنسبة إلى الشعب العربي القديم المعروف باسم (ثمود) ولعل أقدم نص جاء فيه ذكره هو ذلك النص الأكادى الذي يرجع إلى القرن الثامن ق.م. والذي يتحدث فيه الملك (سرجون) عن انتصاراته، فقد عدد الملك الظافر أسماء الشعوب التي أخضعها ومنها الشعب الثمودي، ومن ثم تمضي عدة قرون دون أن نجد ذكرا تاريخيا لهذا الشعب حتى يأتي القرن الخامس الميلادي فنقرأ في الوثائق البيزنطية أن القيصر البيزنطي كان يستعين بعدد من الثموديين في جيشه، ثم تمضى فترة أخرى حتى يأتي القرآن الكريم ويحدثنا عن ثمود كشعب عربي أرسل اللّه إليه نبيه صالحاً.

وظل أمر هذا الشعب مجهولا، كما ذهب الشراح والمفسرون مذاهب عدة في فهم هذا الشعب وحقيقته حتى جاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر فظهر الرحالة المشهور (شارل دوتي ch. Doughty) وقام برحلته المشهورة إلى الحجاز عام 1876 ـ 1877 م وسار حتى بلغ الطائف

وجمع عدداً كبيراً من النقوش نشرها عام 1891 في باريس. وبعد (دوتي) أقبل عدد كبير من المستشرقين على البلاد العربية ونخص بالذكر منهم (جوسن)، و (سافنياك) فقد قاما برحلتين هامتين أولاهما عام 1907 وثانيتهما (1909 ـ 1910 وقد جمعا كثيراً من النقوش والمعلومات التي أفادت تاريخ البلاد العربية ولغاتها.

وغير هؤلاء نجد أمثال (ب. موريتس B. Moritz) و (ر. بوتين R. Butin) و (هوبرت جريمه H. Grimme) و (هنس روتست H. Rhotest و (ى. ى. هس J.J. Hess) و (ج. ريكمنز J. Ryckmqns) و (ف. ف. وينت F. V. Winnett) وغيرهم.

أما الكثرة المطلقة من هذه الكتابات الثمودية فقد عثر عليها في (الجوف) و (حايل) وما حولها، وعلى طول الطريق الممتد بين (حايل) و (تيماء) و (العلا) مارا بالحجر ومدائن صالح وجنوبا الطائف والطريق المعروف الآن باسم درب الحج الموصل إلى مكة وشمالا تبوك وما جاورها، كما عثر على بعض الكتابات أيضاً في أم الرصاص بالأردن وإقليم الصفا وفي شرابيل بشبه جزيرة سيناء وجهات أخرى متفرقة بالقرب من العقبة وشمالا عند صيدا.

ومن انتشار هذه الكتابات الثمودية نقرر أن هذا الشعب عاش في شمال الجزيرة ولو أن ذلك لا يمنع من القول إنه أصلا قد يكون جنوبيا يمنيا ومن ثم رحل إلى الشمال.

ومن هذه الكتابات الثمودية يتضح لنا أيضاً أن الشعب الثمودي كان شعبا مستقراً متحضراً يحترف الزراعة وتربية الماشية والصيد وتربية

النحل. كما أنه كان شعبا متدينا له كثير من دور العبادات وبيوتها، كما كان له مجمع آلهة كمجمع مكة، ومن بين آلهته نجد عدداً كبيراً من معبودات العرب الجنوبيين أعني المعينين والسبائيين مثل (عثيرت) آلهة الشمس القتبانية و (سين) إله القمر الحضرمي و (عم) إله القمر القتباني، كما عبد الثموديون بعض آلهة سكان قبل الجزيرة أمثال (ود) و (سميع) و (هبل) و (ياغوث) و (إله) و (اللات) و (حول) و (مناة) و (مناف) وغيرها.

ومن دراسة طقوس وأسماء هذه المعبودات واشتراك أكثر من شعب عربي في تقديسها نتبين المستوى الروحي العام الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام، كما ندرك الخطوات السريعة التي خطتها الشعوب العربية للتوحيد أولا والاتحاد ثانيا.

أما الخط الثمودي فخط عربي قديم أعني ليس كتابة دخيلة كتلك التي نجدها عند الأكاديين ألا وهي المسمارية، وقد استخدمها غير البابلين الأشوريين الشعب العربي الأوجاريتي. وقد عاون العلماء على حل رموز الخط الثمودي إلمامهم بالخط المعيني السبائي أولا والصفوى ثانيا. واختلف العلماء حول أصالة الخط الثمودي، فذهب نفر منهم (هليفي) و (هوبرت جريمه) إلى أن هناك ثمودية قديمة وهي تلك التي عثر عليها في الحجاز وأخرى حديثة وهي التي وجدت في نجد. وذهب هؤلاء العلماء إلى القول بأن الثمودية القديمة ترجع إلى حوالي عام 1000 ق.م إلا أن هذا التقسيم لا يزال قيد البحث.

وبالرغم من حداثة الاهتمام بهذه الكتابات فإننا نستطيع على ضوئها معرفة اللغة الثمودية معرفة تعاوننا على تاريخ اللغة العربية القرآنية.

فمن ناحية الأبجدية فقد استكملت الإشارات التي تمتاز بها العربية القرآنية على الكنعانية التي لا تشمل إلا على اثنتين وعشرين إشارة هي: «أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت» بينما أضافت إليها العربية القرآنية وغيرها «تخذ ضزغ».

وغير الأبجدية تتفق الثمودية مع عربيتنا في الإبدال والإعلال والضمائر وأدوات الإشارة والموصول والظرف، كما تغلب على مفرداتها الأصول الثلاثية سواء في الأفعال أو الأسماء، كما أن من أسمائها المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، والجمع منه السالم ومنه التكسير. كما جاءتنا فيها صيغة (فعيل) الدالة على التصغير وياء النسب و (هاء) التعريف.

أما الفعل فعلاوة على حالاته وصيغه وأوزانه المختلفة التي نعرفها في لغتنا الفصحى فيمتاز أيضاً مثل اللحيانية بصيغة (هفعل).

* * *

أما الكتابات الصفوية فقد عثر على آلاف منها في منطقتي حوران والصفا شرق دمشق لذلك نسبت الكتابة إلى المكان الأخير، ولو أنها وجدت في عدة أماكن أخرى. والصفوية بالرغم من اختلاف خطها عن

كل من اللحياني والثمودي إلا أنها تكاد تتفق معهما في كل شيء وهي بدورها قريبة جداً من العربية القرآنية، ويرجح أن النقوش التي وجدت فيها ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين.

والنتائج التي خرجنا بها من هذه اللغات العربية الشمالية تكاد تتفق تماما وتلك التي انتهى إليها المختصون فيما يتعلق بالأوجاريتية.

* * *

هذه هي العربية الشمالية كما جاءتنا في الكتابات والمخربشات، لكن هناك مصدراً آخر جاءنا بمحصول عربي وفير ألا وهو مصدر الرواية فعن طريقها وصلنا الشعر والأخبار وبخاصة تلك المتصلة بأيام العرب. ومن الشعر الجاهلي صحت نسبته لقائليه أو لم تصح نتبين المرحلة التي بلغها الشعر العربي عروضا وفنونا قبيل ظهور الشعر الإسلامي. ومن لغة أيام العرب والأخبار نتعرف إلى فن من فنون النثر هو مرتبة النثر الفني العالي ولغة التخاطب الدارجة وأسلوب هذا الفن يشبه كثيراً لغة الصحافة والإذاعة في عصرنا الحديث.

لكن من حسن حظ العربية والناطقين بها أن بعث اللّه محمداً للناس كافة نبيا ورسولا وأيده بآية هي خير ما عرفته العربية منذ أن ظهرت للوجود أعني القرآن الكريم. فهذا الكتاب العربي لغة وأسلوبا وفنا آية اللّه الناطقة على سمو النثر العربي في ذلك العصر من ناحية ونضج العقلية

العربية من ناحية أخرى، وأن شعبا يخاطب بمثل هذه اللغة لدليل قوي على المرتبة الأدبية الرفيعة التي بلغها القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أدب رفيع وقصص بديع وتقنين وتشريع، إلى دعوة دينية سامية لخير أثر للعربية والعروبة حتى هذا العصر.

ولم يقف أثر لغة الوحى عند النبي (ﷺ) وصحبه والمسلمين الأولين من مهاجرين وأنصار بل نجد هذه الرسالة تغير دينا ولغة وأدبا. أما الدين فقد جمع أتباعه على عبادة إله واحد صمد لم يلد ولم يولد، كما عنى بالتقنين المدني فنظم حياة المسلمين ونهض بهم. أما اللغة فقد غنيت بمصدر جمع الشارد والوارد من مفرداتها، كما سجل قواعدها نحوها وصرفها وعنى بالجملة تركيبا وبديعا وبيانا فكان القرآن الكريم وما زال إلى جانب ناحيته الدينية كتاب لغة وأدب، وكتب للعربية الخلود فلم يصبها ما أصاب غيرها من اللغات القديمة كالهير وغليفية واللاتينية واليونانية من تفكك وتحلل وزوال، وستظل هذه العربية حية ما دام في المعمورة مسلم.

أما من الناحية الأدبية فقد وجه القرآن الكريم الأدب العربي وجهة جديدة فبعد أن كان العرب منصرفين إلى الشعر تحولوا تدريجيا إلى النثر، وظهر من بينهم كتاب إلى جانب الشعراء. ولم يقف أثر القرآن الكريم عند هذا فقد كان عاملا قويا في جمع شتات القبائل العربية حول دين واحد ولغة واحدة وثقافة واحدة وهدف واحد، وكانت النتيجة المحتومة لهذا الاتحاد أن تزاوجت اللهجات فظهرت اللغة العربية الإسلامية الجديدة التي لهج بها عرب الجزيرة كافة، وأصبحوا وللمرة الأولى في

تاريخهم يفكرون في لغة واحدة ويتأدبون بأدب واحد ويدينون بدين واحد، وأصبحوا شعبا واحدا وجد في نفسه الحيوية والمؤهلات الاجتماعية التي أهلته لأن يسود العالم فترة طويلة من الزمن.

فالقرآن الكريم وهو دستور العرب والمسلمين دفع بهم خارج الجزيرة فانتشروا في بلاد الفرس والروم وحرروا أطراف الجزيرة من الأجانب كما عبروا آسيا إلى أفريقيا، ولم يمض قليل من الزمن حتى ثبتوا أقدامهم في وادي النيل واستولوا على شاطىء بحر الروم الافريقي، لكن فرحة التحرير ونشوة النصر ولذة الفتح لم تله قادة العرب عن الاحتياط لصيانة العروبة والعربية فالجيوش الإسلامية قد صهرت القبيلة العربية وحولتها إلى قوة متدفقة تؤمن بالعروبة لابكلب أو قيس أو تميم أو قريش ولكنها العروبة الخالصة والعربية الصافية التي امحت فيها خصائص اللهجات وذابت رواسب اللغات التي نطقت بها شعوب الجزيرة العربية في العصور السابقة فخشى قادة المسلمين على هذا النصر الجديد من الانتكاس فحرم القواد على الجنود الإقامة بين السكان الأصليين أو الاختلاط بهم محافظة على الروح العسكرية العربية من الانحلال، كما أمنوا اللغة الإسلامية الجديدة الناشئة من عجمة الفرس ورطانة البيزنطيين فأسسوا في مصر الفسطاط وحشدوا فيها الوحدات المختلفة للجيوش العربية.

وما فعله العرب بمصر فعلوه في الأقطار الأخرى، لكن اهتمام الفاتحين بأمر هذه الأقطار اضطرهم إلى الاتصال بالسكان الأصليين، ونشأ عن

هذا الاتصال ظهور لغة للتفاهم. وقد كان قيام هذه اللغة على حساب فصاحة العربية وخصائصها، وذلك لأن لغة الضاد لها من الخصائص الصوتية والقواعد النحوية مالا يوجد نظيره في اللغات الأخرى، حتى أولئك الأجانب الذين أخذوا أنفسهم بدراستها عجزوا عن تجويدها إذ تنقصهم السليقة العربية والإحساس النحوى المرهف، لذلك أخذت تظهر إلى الوجود لهجات غريبة جديدة لا تستمد أصولها من العربية الفصحى بل من اللغات الأجنبية المحلية، فهي مثلا مصرية في مصر آرامية في الشام فارسية في العراق، ومع تتابع الزمن أخذت هذه اللهجات تنمو وتترعرع حتى قضت بدورها على اللغات الأصلية المحلية والتي استمدت منها سابقا بعض مقوماتها وحلت محلها؛ ففي مصر مثلا قضت على القبطية في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحت العربية المصرية إلى جانب العربية الإسلامية لغة للتخاطب والمعاملات والدواوين.

وساعد على قيام هذه اللهجات العربية المولدة الانحلال الذي طرأ على الدولة العباسية نهائيا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقيام دويلات إسلامية مستقلة، وهذا الاستقلال السياسي تبعه استقلال لغوي محلي فقد انضمت لهجات كل إقليم بعضها إلى بعض وتألفت منها مجموعات من اللهجات تمتاز كل مجموعة بخصائص نحوية وصوتية وصرفية، وهذه اللهجات الإقليمية تجمعت في العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، وكانت من الأهمية

بحيث أن بعض رحالة المسلمين في العصور الوسطى نبه إليها وعنى بها كما صنع المقدسي في وصف رحلته التي قام بها في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري.

وكما أن العربية الإسلامية ساهمت في خلق العربية المولدة فإن الأخيرة أثرت بدورها في العربية الإسلامية التي كانت مستعملة عند العرب الخلص المقيمين في البلاد المفتوحة، وهكذا تعرضت العربية الإسلامية للأخطار التي كان يخشاها مسلمو صدر الإسلام. ففشى فيها اللحن وكاد يتعطل الإعراب وأصبحت المولدة لا تهدد النثر فحسب بل الشعر أيضاً. لذلك اشتد الخلاف بين علماء اللغة العربية حول هذا التفاعل بين اللغتين وانتهوا أخيراً إلى وجوب العمل على تنقية العربية من الدخيل ووضع كتب في القواعد والنحو.

وكانت النتيجة المحتومة لذلك ظهور اللغة العربية المولدة كمنافسة ومنافسة قوية للعربية الإسلامية، واختصت كل من اللغتين بناحية من نواحي النشاط العقلي فرضيت العربية الإسلامية أن تكون لغة العلم والعلماء وتنازلت لمنافستها عن السوق والسوقة. وقد تمت هذه القسمة في أواخر القرن الثاني الهجري ومنذ ذلك العصر والتنافس قوي جبار بين اللغتين حتى يومنا هذا. ولولا القرآن الكريم أولا والمصالح السياسية ثانيا لقضت المولدة على الإسلامية وبخاصة بعد أن استكملت كل مقومات اللغة الحية فابتدعت فنون الشعر الحديثة من مواليا ودوبيت وكان وزجل وموشحات وغيرها واغتنى نثرها بمختلف الألوان التي تحتاج إليها المفكر العربي الحديث.

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن العربية الإسلامية ظلت كما كانت في صدر الإسلام بل تأثرت بالبيئة الإسلامية الجديدة، وأخذت تتطور هي أيضاً لكن في حدود ضيقة. وهذا التطور الأدبي لاءمه تطور نحوي تصوره لنا مسائل الخلاف بين الكوفة والبصرة. كما يصور لنا الجاحظ وكتبه المرتبة الرفيعة العالية التي بلغتها العربية الإسلامية في عصرها الذهبي الممتد من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث الهجري. وإذا كان الجاحظ يمثل الكتاب المبرزين في ذلك العصر فأبو تمام يأتي في مقدمة شعرائه.

لكن ما كادت شمس القرن الثالث الهجري تغرب وتميل كفة الأتراك في المجتمع الإسلامي وبخاصة أيام الخليفة المعتصم حتى بدت على العربية الإسلامية عوامل التدهور والاضمحلال؛ فالأتراك وبخاصة رجال الجيش كانوا يجهلون العربية إسلامية ومولدة وكان حظهم من الثقافة العامة ضحلا، لذلك سرى الضعف إلى مختلف الطبقات حتى إلى القصر والدواوين، وهذا ما حدا بابن قتيبة في أن يكتب أكثر من كتاب لتعليم الكتّاب وموظفي الديوان التحرير والإنشاء.

ولم ينج من هذا الوباء اللغوي الشعراء أنفسهم فشتان بين شعر البحتري وابن الرومي من ناحية وبين شعر سلفهما أبي تمام من ناحية أخرى. وهذه الهاوية التي تردت فيها العربية على يد رجال الجيش من الترك هي من البواعث القوية التي دفعت حركة الاعتزال إلى الظهور والعناية بالعربية والأخذ بيدها.

وليست العربية الإسلامية هي الوحيدة التي أصابتها هذه الضربة على يد هؤلاء العسكريين بل العربية المولدة أيضاً، وقد أدى هذا الضعف العام إلى أن النحويين أنفسهم كانوا في ختام القرن الثالث الهجري عاجزين عن استخدام العربية الإسلامية اللهم إلا في الأندية الخاصة، ورسائل ثعلب بما فيها من مخالفات نحوية صريحة، إلى جانب لحن الأحول والأخفش الأصغر خير صورة تمثل عربية ذلك العصر. وقد صور لنا قدامة بن جعفر الحالة التي بلغتها العربية في ذلك الوقت فذكر في الكتاب المنسوب إليه وهو نقد النثر ما نصه:

«وأما المواضع التي يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له في أمثالها ويكون ذلك مما يوجه الرأي فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لا يعربون فمن الرأي لدى العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يعرب بين أيديهم وأن يدخل في اللحن مدخلهم ولا يريهم أن له فضلا عليهم؛ فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه، ومتى رأى أحدا منهم قد فضله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه». (طبع بولاق ص 162).

ونتيجة أخرى من نتائج هذا التطور الذي وقع للعربية؛ انصراف اللغويين والنحويين عن رجال البادية وعدم الرجوع إليهم فيما يعرض لهم من مشاكل، وذلك لأن القوم في ذلك العصر كانوا يعتبرون ألفاظ البادية نوعا من التشدق والتقعر؛ لذلك انصرف اللغويون عن الجمع إلى الدرس والبحث والنقد لتعليل القواعد أولا وتخريج الشواذ ثانيا.

ومن أوائل العلماء اللغويين الذين سلكوا هذا الطريق ابن جنى الذي توفى في أواخر القرن الرابع الهجري، فهذا العالم لم يقف عند البحث والتحليل بل أخذ نفسه بنقد الأعراب واتهم بعضهم في لغته فذكر في خصائصه أن الأعراب قد يقعون في اللحن كغيرهم. ونفس هذه النظرة الناقدة أثرت في كثيرين من معاصري ابن جنى وخلفه.

وفي أواخر القرن الرابع أيضاً ظهر السلجوقيون وأسسوا دولة حكمت حتى منتصف القرن السابع الهجري وقد تمكن هؤلاء الأتراك من الحكم والسلطان، كما حلت الفارسية محل العربية كلغة للقصر وأخذت تناهض العربية وتنافسها في الأدب. ولولا أن العربية هي لغة الإسلام ولولا أن السلاطين أيقنوا أن بقاءهم في الحكم رهن باحترام الإسلام ورجاله ما عنى السلاجقة بالقضاء ورجاله ولا الإدارة والقائمين عليها، لذلك أخذوا منذ أواسط القرن الخامس في تأسيس المدارس لتخريج رجال القضاء والإدارة. ولعل أشهر مدرسة عرفها ذلك العصر في الشرق هي المدرسة النظامية ببغداد والتي أسست عام 495 هـ وتولى التدريس بها نخبة من أفاضل العلماء ولغوبي ذلك العصر أمثال التبريزي وعلى بن زيد والجواليقي.

وفي القرن السادس الهجري ظهر أمثال الحريري صاحب المقامات، ودرة الغواص في أوهام الخواص، ومن رسالته الأخيرة ندرك أنه كان من الحريصين على تنقية اللغة من الأخطاء والمحافظة عليها من اللحن.

ومن مؤلفات رجال ذلك العصر تتضح لنا الحالة التي آلت إليها العربية، كما أن جهل القوم بقواعد العربية دفعهم إلى العجز عن التفرقة بين حالات الإعراب المختلفة من رفع ونصب وجزم، كما انقرضت صيغ وحلت محلها أخرى.

وهذا التدهور الذي انحدرت إليه العربية كان طبيعيا وذلك بسبب الانحلال السياسي والاضطرابات الداخلية والحروب الصليبية. فكل هذه العوامل مجتمعة صرفت القوم عن اللغة والعناية بها.

ومما زاد الطين بلة الغزو المغولي فقد أصاب من العروبة والعربية مقتلا عندما اكتسح المغول بغداد عام 656 هـ، ولولا قيض اللّه للإسلام والعروبة مصر التي ردت المغول على أعقابهم وأهلكتهم في الشام وطهرت البلاد منهم لأصبح الحال غير الحال الذي نحن عليه الآن، وأن مصر بنصرها هذا وانتصارها للعروبة والعربية انتزعت زعامة العالم الإسلامي لنفسها وأصبحت في عهد السلاطين المماليك الدولة المرموقة والأمة المهابة وبخاصة بعد أن انتصرت على الصليبيين وشردتهم.

## مميزات اللغة العربية

وتمتاز اللغة العربية القرآنية عن أخواتها بمميزات أهمها :

**1 ـ أداة التعريف :**

لا تعرف الأكادية والحبشية أداة خاصة وتستخدم الأرامية (الألف) في نهاية الكلمة المراد تعريفها، وتستعمل الكنعانية الحرف (هـ) مع

تشديد الحرف الذي ما لم يكن حرفاً حلقيا فيستعاض عن التضعيف بالمد التعويضى أو التضعيف التقديري.

وفي العربية الجنوبية ولهجة نجد تستخدم الطمطمانية، كما تلحق السبائية (النون) أحيانا بالمعرف.

أما اللغة العربية فتتفق والكنعانية إذ نجد بعض اللهجات العربية الشمالية كالثمودية واللحيانية والصفوية تستخدم (هـ) أو (هـ ن) أو (هـ ل) كما نجد لهجات أخرى كالحجازية تستخدم (ال).

2 ـ يجمع المذكر عادة بإضافة ( و ن) رفعا (ين) نصبا وجرا و (و) أو (ي) في حالة الإضافة.

3 ـ جموع التكسير.

4 ـ التثنية مضطردة في العربية القرآنية بينما آثارها في سائر اللغات العربية الجاهلية.

5 ـ الإعراب.

لكن ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه المميزات لازمت عربيتنا منذ وجودها حتى اليوم فنحن لا نستطيع أن نعرف إلى أي حد تتفق العربية كما وصلتنا قبيل الإسلام والعربية السابقة والتي حفظت لنا بعض آثارها في اللغات العربية الأخرى، وذلك لأن هذه الآثار اللغوية القديمة إن دلت على شيء فعلى تنوع الصيغ وتعدد الحركات وذلك لأن العربية القرآنية كانت على اتصال مستمر باللغات العربية الجاهلية الأخرى فساعدها هذا الاتصال على الاحتفاظ ببعض مفردات وخصائص شقيقاتها التي

اختفت من مسرح الحياة الرسمي وظلت حية بين طبقات الشعب؛ فنحن ما زلنا نجد في العربية مثلا وزن (هفعل) وهووزن كثير الورود في الكنعانية ويكاد يختص بها مثل (هراح) إلى جانب (اراح) و (هراق) إلى جانبي (أراق) و (هراد) إلى جانب (أراد).

كذلك ما زلنا نجد في عربيتنا صيغتى (شفعل) و (سفعل) وهاتان صيغتان أكاديتان مثل (شحذ) فأصلها (ش وحذ) وشحذ السكين أحده، (حذ) أي أسرع قطعه. وكذلك (شخص) فأصلها ( ش وحص) وحص الشعر حلقه وأذهبه، وفي الحديث فجاءت سنة حصت كل شيء أي أذهبته. كذلك (شخر) أصلها (س وخر) وخر الماء خريرا صات. وخر النائم غط. وفي العربية الدراجة ما زلنا نجد (شرمط) وأصلها (ش ورمط) ويقال رمطه عابه وطعن عليه. و (شندل) أصلها (ش وندل) من (ش ونذل) والنذل الخسيس من الناس المحتقر في جميع أحواله.

ومن أمثلة (سفعل) نسوق مثلا (سدل) أصلها (س ودال) و (سحت) أصلها ( س وحت) وسحت الشيء استأصله من حت و (سطح) أصلها (س وطحا) وغيرها.

وإذا علمنا أن اللغة العربية سلخت من عمر الدهر مئات القرون أدركنا أنها خضعت بحكم هذا العمر المديد واتصالها باللغات واللهجات العربية الجاهلية لتطورات لغوية كثيرة، لكن مما يؤسف له حقا أن مثل هذه التطورات لا نتبينها بوضوح في الآثار التي وصلتنا اللهم إلا ما جاءنا في كتب اللغة أو الأدب أو السير أو أيام العرب. ومرجع هذا الغموض

الكتابة العربية في مراحلها المختلفة سواء قبل الميلاد أو قبل الإسلام أو بعد الميلاد وبعد الإسلام وذلك لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة واللغة العربية القرآنية مثلها مثل سائر اللغات العربية الجاهلية تكتفي بالحروف الصامتة وتهمل الحركات والإشارات الأخرى الدالة على الضغط والنبرة، ومن هنا أصبح من الممكن أن كل عربي يقرأ النص في لهجته الخاصة التي قد تكون مغايرة للهجة الأصلية التي ينتسب إليها هذا النص.

أما الحركات التي وجدت فهي متأخرة وقد وضعت في الواقع لتطابق ضربا خاصا من ضروب الأدب العربي ألا وهو الشعر، ومن ثم حملت فيما بعد على سائر الفنون ونسى المتقدمون أن ما يصدق على الشعر قد لا يصدق على النثر، وما يصدق على الضربين في عصر من العصور قد لا يصدق في عصر آخر، فالشاعر التميمي مثلا قد يضطره فن الشعر إلى فتح حرف المضارعة بينما يكسره في لغته الخاصة. ومن هنا أصبحت هذه الحركات وقفاً على ضرب خاص من ضروب الأدب وليست عامة للغة العربية سواء كانت جاهلية أو قرآنية. والشيء الجدير بالذكر أنه لم يصلنا نص نعرف منه كيف نطقه صاحبه بل حتى القصيدة الشعرية لا نعرف لها إلا هذا النطق التقريبي الذي تحدده لنا هذه الحركات المتأخرة وهو نطق يتفق وزمن نطقه، ولا يشترط أن يكون قديما، والعكس أن هذا النطق الإسلامي حمل على الآثار الأدبية القديمة وكان يجب أن يفرق بين الحالين.

ولعل مخالفة الإملاء للنطق أحيانا مصدرها تطور نطق الكلمة أو تعدده، وهذه الظاهرة مشاهدة في رسم المصحف الكريم والآثار الأدبية الأخرى سواء كانت عربية قرآنية أو جاهلية قديمة. ففي العبرية مثلا نجد (صان) أي (ضأن) فإنها تنطق (صون)، وكذلك (راش) أي راس فإنها تنطق (روش) وهلم جرا، لذلك لا نستطيع الاستفادة من نظام الحركات في العربية لتأريخها، وخير لنا أن نعتمد على الحروف الصامتة فقط، ومن سوء الحظ أن عثمان بن عفان قضى على هذه الخلافات القبلية لحد كبير عندما أقدم على جمع القرآن تجنبا للاختلاف وقضاء على المنازعات. فعمل عثمان وإن كان قد أفاد الإسلام والمسلمين إلا أنه كان على حساب تاريخ تطور اللغة العربية. هذا مع مراعاة أن القرآن الكريم والشعر الجاهلي مثلا لن يقدما لنا صورة صادقة للغة العربية في ذلك العصر كلغة شعبية كلغة معاملة وتخاطب إذ أن للشعر العربي لغته الخاصة كما أن للوحي لغته الخاصة أيضاً، وما يستحب في القرآن الكريم قد لا يستحب في الشعر مثلا فابن قتيبة يذكر أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك :

إن الحوادث بالمدينة قد　　أوجعتني وقرعن مروتيه

وجببني جب السنام ولم　　يتركن ريشا في مناكبيه

فقال له أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيه، فقال «ما عدوت كتاب اللّه، ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾».

لذلك لن نستطيع أن نقرر أن الظواهر اللغوية التي نجدها في الشعر أو القرآن الكريم كظاهرة الإعراب مثلا هي ظاهرة عربية عامة لن يستخدمها

الرجل العامي في معاملاته اليومية، وبتعبير أدق أن هذا النحوالذي حفظته لنا هذه الكتب التي بأيدينا ليس نحو اللغة العربية عامة بل نحو فن خاص من فنون الأدب العربي الرفيع، بل وحتى الشعر العربي لوكان قد جاءنا كما هو لخرجنا منه بقواعد لا شك في أنها تتعارض وكثير من القواعد التي يفرضها علينا النحو الرسمي. فرواة الشعر في معظم الأحوال لم يروا لنا إلا نوعا خاصا من أنواع الشعر وهو الشعر النجدي أو ما قيل في لغة نجد الشعرية، فابن قتيبة يذكر مثلا عند حديثه عن الشاعر عدي بن زيد العبادي «إن العرب لا تروي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية».

ثم أين مراعاة قواعد النحو مثلا في قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب  اسما من اللّه ولا واغل

فجزم (اشرب)

وقال الآخر :

رحت وفي رجليك ما فيها  وقد بدا هنك من المئزر

أراد (هنك) بالرفع أعربه بالحركة في حال الإضافة وهي لغة وسكنه تشبيها بعضد.

هذه بعض الأمثلة أشير إليها والحقيقة التي تجب الإشارة إليها هي أن قدسية القرآن الكريم حالت دون انتصار لغة الكثرة المطلقة من الناطقين بالعربية على لغة الشعر والنثر الفني وذلك لأن هذا الانتصار لن يتم إلا على حساب القرآن الكريم لذلك اتسعت شقة الخلاف بين لغة الأدب

الميتة ولغة الشعب الحية، لكن حيث تنعدم هيمنة القرآن وسطوته تقوى لغة الشعب وتسود وتتبوأ مكانتها كلغة للعامة والخاصة وكلسان للأدب الشعبي وترجمان للقرائح الرفيعة كما هو مشاهد في اللهجة العربية المالطية المسيحية: لكن ليس معنى هذا أن اللغة العربية الشعبية استسلمت لهذه اللغة الفنية بل كافحت ونجحت في فرض نفسها وبسط سلطانها على الميادين التي كان يجب أن ترفرف عليها راية اللغة الأخرى. ففي الشعر ظهرت الفنون السبعة وفي التدوين ظهرت القصص الشعبية وما إليها.

* * *

## وطن اللغة العربية القرآنية

سبق لي أن قررت أن اللغة العربية الشمالية خليط من لغات ولهجات والآن أقرر أن العربية الشمالية عبارة عن مجموعتين لغويتين عظيمتين؛ مجموعة حجازية أو غربية أو كما تسمى أحيانا قرشية، ومجموعة تميمية أو شرقية أو كما تسمى أحيانا نجدية.

أما لفظ حجاز فمعناه في الأصل (الحبل) الذي يحجز به البعير، والحجاز الجبال، والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخالفيها كأنها حجزت بين نجد وتهامة. ويذكر البكري في معجم ما استعجم عن الكلبي أن الحجاز ما حجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام إلى العذيب والطائف من نجد والمدينة من نجد وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض.

وتهامة ما ساير البحر منها مكة والعبر والطور والجزيرة، ويذكر البكري أيضاً نقلا عن عمر بو شبة أن الحجاز اثنتا عشرة دارا: المدينة، وخير، وفدك، وذو المروة، ودار بلى، ودار اسجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ودار بعض بني بكر بن معاوية، ودار بعض هوازن، وجل سليم، وجل هلال.

أما نجد من بلاد العرب فهو خلاف الغور، ويعتقد أن هذه المنطقة هي الوطن الأصلي للغة العربية الشمالية وأعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق. وإذا مددنا خطا من الغرب إلى الشرق مبتدأ بجبل رضوي ومنتهيا في الخليج الفارسي شمالا، ومن تثليت غربا إلى البحرين شرقا لحصرنا وطن اللغة العربية القرآنية، وهو أكثر من ثلث وأقل من نصف الجزيرة العربية. وإذا استثنينا الجهات البركانية في هذا الإقليم خاصة في نجد وجدنا أن سائر الأراضي صالحة للزراعة، وقد عملت الحكومات المتعاقبة على إقرار البدو هناك وتشجيع الزراعة خاصة في الإقليم الممتد بين (حايل) و (وادي الرمة) حيث توجد قرى عامرة بعضها قديم والبعض الآخر حديث.

أما الصقع الواقع جنوب وادي الرمة ويمتد غربا حتى حرة الحجاز ويخترقه الطريق من (حايل) إلى مكة فأحسن خصوبة وأكثر إنتاجا؛ ففي هذا الصقع وفي الإقليم الآخر المتصل بالحجاز خاصة حول المدينة اتجه اهتمام الدولة العربية الفتية في القرن السابع الميلادي؛ إذ نجد الخليفة الأموي معاوية يوجه اهتماما كبيراً إليه ويقيم فيه كثيراً من الإقطاعيات الزراعية التي عنيت خاصة بزراعة النخيل والحبوب، وظل الأمر كذلك

حتى جاء العباسيون فأهملوه لأسباب سياسية وأصبح عرضة لهجمات البدو وخاصة في القرن الرابع وخلفوا وراءهم بعض المدن والقرى مثل (ربذة) الواقعة جنوب شرق المدينة، وبها عقد عام 416م يوم التحالف الذي أرخت به العرب ما يقرب من قرنين. ويحدثنا البكري في معجمه وابن سعد في طبقاته وياقوت في معجمه والهمداني وغيره من المستشرقين أمثال (لندبرج) و (دوتي) و (فلهوزن) و (هوبرت) وغيرهم عن ماضي هذا الإقليم وحاضره سواء من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو اللغوية.

في هذا الوطن كما ذكرت نشأت اللغة العربية، وفي هذا الوطن أيضاً تشعبت إلى مجموعتين عظيمتين شرقية أو تميمية وغربية أو حجازية. فما هي تميم؟

تميم قبيلة عربية تنسب إلى تميم بن مر بن اد بن طانجة بن الياس بن مضر وهنا يتصل تميم هذا بمضر ويصير له المكان الأول عند مضر؛ لذلك يطلق اسمه غالبا على سائر المضريين أو سائر القبائل المضرية قيس وربيعة أقرب القبيلتين إلى تميم هي ربيعة، وليس معنى هذا أن صلة القرابة بين تميم وربيعة أقوى منها بين تميم وقيس بل وجه الصلة القوية بين تميم وربيعة هو وجه لغوي؛ فمثلا جاء في الحديث الشريف «الجفاء في هذين الجفين ربيعة ومضر».

ومصادرنا لدراسة تميم عربية فقط وذلك لأن المصادر اليونانية واللاتينية سكتت عن تميم الذين يبدأ تاريخهم بكثير من القصص

والأساطير التي لا يمكن أن تكون تاريخية حقيقية، فياقوت مثلا يذكر في معجمه، وابن قتيبة في معارفه أن قبر صاحب الاسم الذي ينتسب إليه التميميون موجود في (مران) ويذكر ابن دريد في الاشتقاق أنه ولد لتميم ثلاثة أولاد زيد مناة وثمود والحرث.

أما التاريخ الحقيقي لهذه القبائل فلم يذهب أبعد من القرن السادس الميلادي؛ ففي ذلك العصر بلغت تميم مركزاً ممتازاً جدا وعلا شأنها وارتفع قدرها، فقد كانت تنزل شرق الجزيرة واستوطنت نجدا وجزءا من البحرين واليمامة وامتدت منازلها جنوبا حتى (دهناء) وشمالا شرقيا حتى الفرات، وفي الشمال جاورت أسدا، وفي الجنوب الغربي باهلة وغطفان. وقد اعتاد التميميون في منازلهم مخالطة بعض عناصر قبائل عبد القيس وحنيفة خاصة في الشرق والجنوب، وبكر وتغلب في الشمال.

وكانت تميم متبدية تؤثر حياة البداوة على الحضر وإن كانت قد نزلت (هجر الإحساء) والجرعاء للاتجار وفي المناسبات الخاصة.

ويحدثنا التاريخ أن منذر بن سارا صاحب هجر عقد مع النبي حلفا، ويتجلى لنا من بعض أسماء الاعلام التميمية أن بنى تميم كانوا يقدسون اللاة ومناة والعزى وكذلك شمس التي كان ينطقها التميميون (شُمْس) بضم الشين وتسكين الميم. وكان يقوم بالسدانة بطن تيمي هو بطن (بنو أوس بن مخاشن).

ومن أشهر القبائل التميمية التي انحدرت من (اد) ضب وعكل وتيم وعدى وثور، كما نعلم من المصادر التي وصلتنا أن المسيحية شقت

طريقها إلى بعض التميميين، ووجدت عند بعضهم قبولا. وقد أطلق على أتباعها اسم (عباد) وكانوا يقيمون في الحيرة وزعيمهم الشاعر المشهور عدى بن زيد.

والشيء الجدير بالملاحظة هنا أن ترامي أطراف منازل تميم أدى إلى تشعب القبيلة إلى بطون وأفخاذ، ومع مرور الزمن أخذ كل فخذ يعتد بنفسه مما أدى إلى قيام خصومات وحروب، ولا أدل على عنف هذه الخصومات من هذا النزاع القوي الذي قام بين جرير والفرزدق. فالشاعران تميميان ينتميان إلى بطنين مختلفين لكنهما ذهبا في هجائهما بعيدا. إلا أننا يجب أن نفهم أن هذه الخصومات لم تقف عقبة دون سيادة السلم في تميم، فصاحب الفهرست يحدثنا أن حلفا عقد بين بني يربوع وبني نهشل، كما يظهر أن النسابة الشهير أبو اليقظان سحيم بن حفص المتوفي عام 190 هـ وضع كتابا أطلق عليه (كتاب حلف تميم بعضها بعضاً) [1].

ومن القبائل التميمية الأخرى التي جاءنا الكثير من أخبارها زيد مناة وعمرو، ومن الثانية تشعبت الأنبار بينما تنقسم الأولى إلى سعد ومالك وإلى سعد تنتمي منقر وعطارد، وإلى مالك ترجع حنظلة ودارم، وتنقسم الأخيرة إلى بطون، كما تفرعت عن حنظلة يربوع التي نشأت منها رياح وكليب ـ قبيلة جرير ـ ومن دارم نشأت نهشل ومجلشع ـ قبيلة الفرزدق.

1 ـ راجع فهرست ابن النديم، ص 94.

وهناك حقيقة يجب التنويه بها ألا وهي أن الأخبار التي جاءتنا عن تميم وبطونها وأعمال أبطالها ومغامرات فرسانها يفوق ما تجمع لدينا خاصا بسائر القبائل العربية مجتمعة، ولعل السر في ذلك هو كثرة شعرائها، فقد خرجت عدداً كبيراً منهم تركوا أشعاراً كثيرة كانت وما زالت ثروة عظيمة للغويين والمفسرين الذين كانوا يبحثون عن الأسانيد اللغوية والتاريخية لتدعيم آرائهم، فلدينا مثلا الأيام و هي خاصة بتميم، والفضل في جمعها يرجع إلى أبى عبيدة، كما نجد أياما أخر جمعها ابن الكلبى وهذه الأيام وغيرها نجدها في شروح نقائص جرير والفرزدق والأغاني والعقد الفريد وابن الأثير.

ومن هذه الأيام نخرج بنتيجتين هامتين: الأولى العلاقات بين تميم وجيرانها من العرب خاصة بكر بن وائل، والثانية العلاقات بين تميم وملوك الفرس الذين نجحوا في بسط سلطانهم على بكر وتغلب وحاولوا بسط نفوذهم على تميم الذين كانوا خطراً شديدا يهددون طرق المواصلات الفارسية خاصة تلك التي كانت بين اليمن وبين مناطق نفوذهم في شرق البلاد العربية.

ومن أخبار هذه الأيام نعلم أيضاً أن شابور الثاني أرسل حملة إلى (هجر)، كما عاقب كسرى الثاني القبائل التميمية لاعتدائها على قافلة فارسية كانت قادمة من اليمن إلى المدائن، ولعل أشهر يوم بين تميم والفرس هو هذا اليوم الذي يعرف باسم يوم المشقر [2] وهو اسم حصن بالبحرين قديم قال المخبل:

2ـ راجع الطبري جـ 1 ، ص 984 ـ 988 (طبع الخارج).

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونه العصم
لتنقبن عني المنية إن اللّه ليس كعلمه علم

وقال فيه لبيد يصف بنات الدهر :

وانزلن بالدومى من رأس حصنه وانزلن بالأسباب رب المشقر

ولما جاء الإسلام ظلت تميم كسائر القبائل العربية الشرقية بعيدة عنه حتى كتب للإسلام النصر وفرضت المدينة نفسها على قلب الجزيرة فأقدمت تميم وأرسلت في العام الهجري الثامن رسولا إلى المدينة فعقد مع النبي حلفا لكن يظهر أن إسلامهم كان سطحيا، إذ سرعان ما ارتدوا عقب انتقال النبي (ص) إلى الرفيق الأعلى، واستردوا حريتهم وقامت تميم في حركة الردة بدور هام إذ ظهرت فيهم النبية (سجاح) لكن نشاط خالد أرجع تميما إلى حظيرة الإسلام. ولم يمض زمن طويل حتى أخذت القبائل التميمة تكون وحدات الجيوش الإسلامية القوية التي اتجهت شرقا نحو فارس حيث عسكرت في موضعي الكوفة والبصرة، وفيما بعد تقدمت إلى خراسان وغزتها ثم استوطنتها. وكانت هذه العناصر التميمية هي الغالبة في تلك الجهات وظل الحال كذلك حتى العصر العباسي.

وكانت تميم في الإسلام مشهورة بالشجاعة وفنون الحرب شأنها في الإسلام شأنها في الجاهلية. ومن الجدير بالذكر أن النزاعات التي قامت في العصر الأموي كانت تميم هي العنصر الهام فيها ولو أن التميميين لم يشتركوا في حرب قيس وكلب إلا أنهم كانوا هم الخوارج، فمنذ ظهور هذه الحركة وكانت زعامتها في يد بني تميم فزعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة ومعظم أنصاره كانوا من تميم، كذلك خرج من هذه القبائل

التميمية البطل المشهور ابراهيم ابن الأغلب فهو من فرع سعد بن زيد مناة، وابراهيم هذا هو الذي كون أسرة الأغالبة في أفريقية.

* * *

أما فيما يتعلق بلغة تميم فيجب أن نرجع بها إلى ما قبل الإسلام وقبل الميلاد وإن كانت لم تعرف قبل ذلك بهذا الاسم إذ لم يصلنا من الكتابات ما يؤيد أن هذه اللغة التميمية التي سأعرض لها هنا لغة تميمية، وكل ما نعرفه عنها أنها لغة عربية كانت معروفة لدى سكان بابل واشور، ويرجح أن هذه اللغة هي لغة سكان الجزيرة في ذلك الوقت أعني وقت اتصال البابليين الأشوريين بسكان شرق الجزيرة.

وأقدم نصوص عربية وصلتنا هي تلك التي نجدها في أسماء الاعلام الواردة في البابلية الأشورية أعني أسماء أسرة حمورابي ـ وهي ترجع إلى حوالي عام 2000 ق.م ولما كانت معظم هذه الأسماء عبارة عن جمل أصبح من السهل اليسير فهم أو إدراك بعض القواعد النحوية للغة العربية واللغة العربية الشرقية بصفة خاصة، أو ما يعرف فيما بعد باللهجة التميمية. وقد وصلنا من دراسة هذه العبارات التميمية القديمة تجاوزاً إلى النتائج الآتية :

1 ـ الضمير المتصل للمتكلم هو (ي) مثل عمي أي شعبي أو قومي.

2 ـ الضمير المتصل الغائب هو (و) مثل شمو أي اسمه.

وهذه الظاهرة تذكرنا بالصيغة التي ما زالت حية في لغتنا اليومية الدارجة إذ يقال (اسمو) بالواو فقط.

3 ـ الضمير المتصل للمتكلمين هو (نا) مثل آلنا أي الهنا.

كذلك من هذه الأسماء التي وصلتنا نتبين أن أداة النسب هي (و) أو (يو). كما يلاحظ أن أكثر الصيغ استعمالا كانت (فعل) بفتح العين وأقلها (فعل) بكسر العين أو ضمها. أما صيغة (افعل) فهي أكثر الصيغ وروداً خاصة من أسماء القبائل مثل (اخلم). كما عثر أيضاً على صيغة (مفعول) مما يدل على قدمها في اللغة.

وفيما يتصل بصيغ الأفعال، فقد عثرنا على وزن (فعل) في مثل صدق كما نجد المضارع (يفعول) مثل يعقوب و(يفعل) مثل ينتن أي يعطي ويملك، وهناك نجد صيغة (فعال) مؤنث (فعل) مثل لخم ومؤنثة لخام (اسم الهين أكاديين). كما عثر أيضاً على وزن (فعالة) مثل تهامة وهي إحدى المعبودات البابليات الأشوريات. ويستخدم هذا اللفظ في الأكادية للتعبير عن (بحر) وهو مؤنث لفظ (تهم).

وقد ذكر النحويون واللغويون كثيراً من خصائص اللهجة التميمية فأحمد بن فارس يذكر في الصاحبي في (باب اللغات المذمومة) شيئا كثيراً من خصائص التميمية، فهو يتحدث عن (عنعنتها) وإلحاقها القاف باللهاة. ويذكر السيوطي في الفصل الثاني من مزهره في معرفة الفصيح من العرب عن أبي نصر الفارابي أنه ذكر في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف: «كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ

اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وازد عمان لأنهم بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا عن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب انتهى» :

والواقع أن بني تميم هم الذين حافظوا على العربية القديمة الصحيحة شعراً ونثراً وخطابة وذلك بسبب ظهور كثيرين من الشعراء. أمثال أوس بن حجر وفيه يروي ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «كان أوس شاعر مضر حتى أسقطه النابغة، وزهير فهو شاعر تميم في الجاهلية.

ومن شعرائها أيضاً سلامة بن جندل وقد كان أيضاً من فرسان تميم المعدودين، وسليك بن سلكة، وعبدة بن طبيب، وعدي بن زيد، ومالك ومتمم ابنا نويرة وغيرهم»:

وفي العصر الأموي نجد غير جرير والفرزدق البعيث وكثير وثابت قطنه والعجاج ورؤبة. والشيء الجدير بالذكر أن المعاجم التي وصلتنا وكثيراً من المصادر العربية القديمة تقرر أن اللغة التميمية هي اللغة التي عليها الكثرة المطلقة من أبناء اللغة العربية مما يؤيد أن قواعد هذه اللغة يجب أن تكون هي القواعد الصحيحة للغة العربية، ومن أمثلة هذه الإشارات التي وصلتنا ما جاء في لسان العرب (جـ 20 ص 283): «وزعم سيبويه أنهم يقولون تقي اللّه رجل فعل خيراً يريدون اتقى اللّه رجل فيحذفون ويخففون. قال وتقول انت تتقي اللّه (بفتح التاء الأولى) وتتقي اللّه (بكسرها) على لغة من قال تعلم (بفتح التاء) وتعلم (بكسرها) وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب. وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون تعلم (بفتح التاء) والقرآن عليها. قال وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل ألا تعلم بالكسر قال نقلته عن نوادر أبي زيد».

ويحدثنا سيبويه في أكثر من موضع عن وجوه الخلاف بين تميم والحجاز ويذكر كيف يراعي التيميمون القياس وكيف أن لغتهم هي لغة العرب حقا، من ذلك ما جاء في باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة.. وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز [3].

3 ـ راجع سيبويه، جـ 2، ص 275 ـ 277 (طبع أوربا).

ويذكر ابن جني في خصائصه: (جـ 1 ص 130) : «وإن شذ الشيء في الاستعمال وقوي في القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إليه استعماله. من ذلك اللغة التميمية في (ما) هي أقوى قياسا وإن كانت الحجازية أسير استعمالا، وإنما كانت التميمية أقوى قياسا من حيث كانت عندهم كـ (هل) في دخولها على الكلام مباشرة كل واحد من صدري الجملتين الفعل والمبتدأ كما أن (هل) كذلك، إلا أنك إذا استعملت أنت شيئا من ذلك فالوجه أن تحله على ما كثر استعماله وهو اللغة الحجازية، ألا ترى أن القرآن بها نزل. وأيضاً فمتى رابك في الحجازية ريب من تقديم خبر أو نقض النفي فزعت إذ ذاك إلى التميمية فكأنك من الحجازية على حرد وان كثرت في النظم والنثر».

وأفرد السيوطي في المزهر بابا أطلق عليه: ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم: جاء فيه وقال أبو محمد يحي بن المبارك اليزيدي في أول نوادره: أهل الحجاز برأت من المرض وتميم برئت. أهل الحجاز أنا منك براء وتميم وسائر العرب أنا منك برىء واللغتان في القرآن. أهل الحجاز يخففون الهدي يجعلونه كالرمي وتميم يشددونه يقولون الهدي كالعشي والشقي. أهل الحجاز قلوت البر وكل شيء يقلي فأنا أقلوه قلوا وتميم قليت البر فأنا أقليه قليا»:

ويقول ابن عقيل في شرحه لقول ابن مالك :

وبـأولى أشـر لجمـع مطـلقـا  والمد أولى ولدى البعد انطقا

وفيه لغتان المد وهي لغة أهل الحجاز والقصر وهي لغة بني تميم.

وكذلك يفهم الخلاف القائم بين الضميرين المتصلين (هو) و (هـ) و (هي) و (هـ) في مثل قوله تعالى في سورة الأعراف الآية الثامنة بعد المائة وسورة طه الآية السابعة (فإنه) والقصص الآية التاسعة والعشرون (بأهله). وقد عرض سيبويه [4] لهذه الظاهرة «فأما الذين يشبعون فيمططون وعلامتها وأو ياء. وهذا تحكمه المشافهة وذلك قولك... ما منيك (عوضا عن ما منك). وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا».

وتقول تميم أيضاً (اكف الحمار شد عليه الا كاف) ويقول الحجازيون (أوكف).

وغير المد والقصر توجد هناك فروق عديدة بين المجموعتين اللغويتين الشماليتين التميمية والحجازية .

4 ـ راجع سيبويه ، جـ 2 ، ص 324 (طبع أوربا).